الحركات الاحتجاجية بالجزائر: من التظاهر السلمي إلى الاحتجاج العنيف

د.بلهواري الحاج

أستاذ محاضر بجامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم

لقد أعادت الفترة الراهنة الجزائريين الى الواقع والى الحقيقة،حيث انتهت مرحلة الطوبوية وبدأت جملة من الشكوك والتساؤلات حول التجربة السابقة. فبعد انهيار أسعار المحروقات، بدا المجتمع يتحسس الأزمة وكل أشكال المعاناة، مما ان كل الانحرافات و كل المسارات ممكنة و متوقعة. فالاختلالات الكبيرة التي بدأت في البروز على المستوى المشروع الاقتصادي والاجتماعي، كالبطالة وأزمة السكن التي استفحلت، يضاف إليها الهجرة نحو المدن الكبرى...كلها عوامل مهدت لظهور أشكال جديدة من الحركات الاجتماعية، من خصوصياتها العنف كأداة تعبيرية.

فالمتتبع لمسار الحركات الاحتجاجية بالجزائر حاليا يلاحظ تحولا نوعيا في أسلوب الاحتجاج من المظاهرات السلمية إلى المظاهرات العنيفة، وقد أفضى هذا التطور إلى تحول راديكالي في وسائل وآليات الاحتجاج، حيث انتقل شكل الاحتجاج من احتجاج تقليدي سلمي مؤطر وبأهداف واضحة ومحددة إلى تظاهر عنيف غير مؤطر وبدون أهداف يوظف أدوات مختلفة لتحقيق مطالب واقعية. ولعل ابرز ميزات هده الحركات الاجتماعية الجديدة هو أنها حملت معها فاعلا اجتماعيا جديدا...شباب المدن والإحياء الشعبية الذي عبر عن رفضه لأوضاعه المعيشية بلغة سياسية جديدة يغلب عليها الغموض،مقارنة مع الحركات الاجتماعية الكلاسيكية–العمالية، النقابية، الطلابية– المألوفة،[1] فقد اخترعت الحركات الحالية لغة تعبيرية جديدة،استطاعت أن تكون وسيلة ضغط قوية تفرضها على السلطة .

✓فما هي خلفيات هدا التحول في وسائل الاحتجاج بالجزائر؟ و كيف انتقل الاحتجاج من التظاهر السلمي إلى الانتفاضة ؟ وهل الاحتجاج يهدد النظام أم يساهم في إعادة إنتاجه ؟ وما هي الإشكالات النظرية التي تثيرها الظاهرة ؟

هذه التساؤلات التي تثيرها ظاهرة الاحتجاجات في الجزائر هي التي سنحاول في هذه الورقة البحثية الإجابة عليها، وذلك بطرح الإشكالات المنهجية التي تثيرها الظاهرة أولا، وتناول الانتفاضة ورهانات احتلال الفضاء العمومي ثانيا .فالجديد هذه المرة ،لم يكن في المطالب التي استمرت في غالبيتها داخل الطرح الاقتصادوي، بل في حصول هده الحركات الاحتجاجية خارج فضاء العمل باعتباره المكان الطبيعي للاحتجاجات الكلاسيكية السابقة، قد يطرح هدا التمركز الجغرافي الجديد(الشارع) إشكالات سوسيولوجية في غاية الاهمية.

التمركز الجديد لهذه الحركات الاحتجاجية خارج المدن الكبرى وامتدادها الى مدن الجنوب، طغيان أسلوب العنف، التحاق شرائح اجتماعية جديدة، التمفصل بين النخب والجماهير، كلها عوامل جعلت هذه الحركات الاجتماعية رغم استمرارية طرحها المطلبي في الغالب، تخرج من الطابع السلمي إلى الطابع الصدامي العنيف.(*) وبالتالي توفر لنا التبريرات السوسيولوجية لمقاربتها.

ولتفادي المنزلقات المنهجية، لابد منالإشارة إلي أن هذا المسار ليس وخطيا ولا هو نهائي ، ذلك أن التظاهرة السلمية يمكن في أي لحظة وتحت ضغط طارئ غير متوقع أن تتحول إلى انتفاضة عنيفة، و لنا في انتفاضة سكان الجنوب وعين صالح أكبر مثال ، مما يعيد إلى الواجهة شبح الانتفاضات بالجزائر ومالأتها.

واعتمدت في هذه القراءة على بعض الطروحات الماركسية التي تعتمد على وسائل التحليل التاريخي والتراكم للتغيير، لأنه ليس من الطبيعي أن نعتمد على الغضب لتفجير الثورة، مثلما حدث في تونس، وذلك يعتبر تحليلا ساذجا وسطحيا لا يمكن القبول به، فالثورة والتغيير تستدعيان التفكير والمنهجية والبناء وإعداد برنامج وشخصية كاريزمية مؤثرة، فالثورة حسب طروحات ترتسكي هي فعل واعي عميق وطويل وعنيف، وليس عارض وطارئ وسطحي ساذج مثل ثورات الربيع العربي .

أولا : الإشكالات السوسيولوجية لظاهرة الاحتجاج :

عاد الاهتمام في العقد الأخير بظاهرة الاحتجاجات الاجتماعية، وقد انتقل هذا الاهتمام من دراسات يطغى عليها طابع الاختزال والتعميم إلى دراسات تحاول رصد الظاهرة ودلالاتها الرمزية والسوسيو. ثقافية، على أن البحث في هذا المجال مازال يعاني من مشاكل منهجية في هيمنة الإيديولوجية المعارضة الذي تختزل الظاهرة، إن في بروزها وتطورها في خطاب نقابي تطبعه المطلبية دوما.

الإشكال الذي يثير الانتباه هو تزايد وتعدد الاحتجاجات، فكيف يمكن تحليل وتأويل هذا العنف الجماعي الذي يبدو أنه بدون أهداف وتأطير مسبق ؟

قد تتبادر إلى الدهن مجموعة من الإجابات، لكن ما يستدعي الوقوف عنده هو تلك الإجابات التي تدخل في " بار يدغم"، الحرمان والفقر والوعي بالفقر والحرمان ليس تلقائيا وإنما هو نتاج بناء وتراكم ورهان، وعليه تظهر محدوديته، فمن الإجحاف اختزال الاحتجاجات كتعبير آلي للأوضاع الاجتماعية، ذلك أن إحساس هذا التفسير الميكانيكي يجانب الحقيقة والرأي الثاني يقول بفرضية التأثر بحالة ومجتمعات أخرى، نتيجة تراكمات التأثير المتزايد لشبكات التواصل الاجتماعي، على سبيل المثل ثورات ما يعرف بالربيع العربي، هذا الرأي يتعالى عن حقيقة أخرى وهي أن التماثل والتقليد مستبعد في هذا السياق، لأن لكل مجتمع انتفاضة مماثلة لخصوصياته وظروفه.[2]

من المستبعد الحديث عن الاحتجاجات بالجزائر على اعتبارها ثورة أو موقف مجتمعي رافض سيؤدي الى أحداث قطيعة مع ما هو سابق، فالاحتجاجات تؤدي استمرارية النظام حتى اتضحت مرادفة للنظام الاجتماعي والسياسي، فالسلطة تمكنت في كل مرة من إعادة إنتاج نفس أساليب سلوكاتها عبر إعادة استقطاب المناطق الجغرافية التي انطلقت منها شرارة الاحتجاج، فبعد ثورات الربيع العربي جانفي 2011 بتونس . واجتنابا لانتقال العدوى إلى الجزائر قامت السلطة بجملة من الإجراءات : الزيادة في الأجور ، المنح للشباب حسب المنطق الريعي طبعا، وهذه التنازلات أفرغت الاحتجاجات من مضمونها و تعريفها بثورة الزيت والسكر، ومن بين المفارقات في الحالة الجزائرية أن هذا الشكل من الاحتجاج رغم أنه من مظاهر أزمة مشروعية النظام، إلا أنه يعمل إلى إعادة تجسيد الروابط بين المجتمع والدولة .

ثانيا:الاحتجاجات من فضاء العمل الى احتلال الشارع:

في السياق الجزائري لم تبرح هذه الحركات مكان العمل ولم ترتبط بالتحولات العميقة التي عاشها المجتمع الجزائري، فاكتفت بالطرح الاقتصادي والدفاعي حسب "ناصر جابي"، وكان الفاعل الرئيسي داخل هذه الحركات الاجتماعية المغلقة حول نفسها داخل مكان العمل وعالم الشغل عموما عمال القطاع الخاص قبل أن يقودها عمال القطاع العام، بداية من نهاية السبعينات، وبعد ظهور طبقة عاملة جديدة (استثمارات القطاع الصناعي)

والمنطق الريعي الذي اعتمدته نموذج التنمية الجزائري المعتمد على الدولة كفاعل مركزي بل أحادي، ليس في الميدان الاقتصادي فقط بل حتى في الميادين الأخرى السياسية والثقافية، عرفت بروز الكثير من الشروخ ابتداء من الثمانينات، عبرت عن نفسها من خلال حركات احتجاج عمالية واسعة .

وبغض النظر عن دوافع هذه الحركات الاحتجاجية (السياسية، الاقتصادية، والثقافية) فإن أشكال هذه الاحتجاجات بقيت كلاسيكية في الشكل والمحتوى وعلاقات....كانت الحركة العمالية والنقابية هي المحرك الأساسي لها[3].

مع بداية الثمانيات من القرن الماضي بدأ الجزائريون يخرجون تدريجيا من الحالة السابقة الشعوبية السابقة التي كانت تضعهم أمام خيار أحادي هو التسليم والقبول بما تمليه وتفرضه السلطة على المجتمع دون استشارة ولا منافسة من هذه الأخيرة، نحو أشكال جديدة من الاحتجاج الاجتماعي المتمثل في التظاهر في الفضاء العمومي.

وقد أنتج هذا الانتقال إلى تحول علاقة الحركات الاجتماعية بالدولة، فبعد أن كانت مطبوعة بالخطاب الماركسي الإيديولوجي في عقد الثمانينات، فالرهان السياسي هو الاحتلال السلمي للفضاء العمومي الحضري (إضراب الفيس 1991) هذا المعطى سينحصر بشكل كبير في بداية التسعينات، بسبب الوضعية الأمنية، لكن مع بداية نهاية العشرية السوداء بالجزائر، أعادت هذه الحركات لتمارس ضغوطاتها على الدولة من خلال اكتساح الفضاء العمومي بأساليب مختلفة تتمثل التظاهرات (حركة العروش)، والمسيرات للتعبير عن موقف مجتمعي حيال مشكل البطالة، المعيشة...[4]

هده الحركات الاجتماعية التي تمركزت حول القضايا الحياتية (السكن العمل الماء الصالح للشرب... وكل إشكال التهميش المختلفة التي تم التعبير عنها بمفهوم الحقرة[*]، اتخذت لنفسها فضاءات جديدة لا علاقة لها فضاءات الحركات السابقة (المصنع، الجامعة) فقد غزت الشوارع الملاعب والأحياء.

ويمكن تفسير رهان هذه الاحتجاجات في مخيلة المحتجين إلى عدم قدرتهم في التأثير على مصادر القرار، وكذا كون هذه المراهنة على العنف هي اللغة التي تفهمها السلطة وآلية و يجب التعامل بهذا المنطق .

وقد ذهبت بعض هذه الحركات الاحتجاجية إلى ابتكار أشكال احتجاجية غير مسبوقة في الجزائر، كغلق أبواب الإدارات المحلية، الطرق وحتى المؤسسات الخدماتية، بما في ذلك الجامعات .

بالنسبة لتحول أشكال الاحتجاج من السلمية إلى العنيفة، يرى" ناصر جابي" أنه كلما استمررنا في تجاهل الآخر، فإنه يتجه إلى التخلي عن الهدوء وانتهاج سلوك العنف لإيصال صوته وللضغط على الطرف الثاني. فانقطاع قنوات الحوار والتواصل بين المحتجين والسلطة، ولدفع طرق نفوس، الطرف الأول حالة من السخط والإحباط، وساعد ذلك في تضييق الطريق أمام إمكانية التوصل إلى اتفاق والتفاهم حول حلول توافقية لتكون المحصلة انتصار العنف .

يشرح "ناصر جابي " هدا التحول بنتائج دراسة أجراها حول نضالات الحركات الثقافية الأمازيغية، التي بدأت هادئة وسلمية وأكثر تأطيرا من طرف الجمعيات والأحزاب[5] ...، ومع مرور الوقت وبقاء المطالب هي دون استجابة ، جاء قياديون جدد يفضلون التغيير بأسلوب أخر مغاير، مسلحون بشعور الأحقية في تحسين المطالب مهما كانت التضحيات، ويذهب جابي إلى أبعد من ذلك، عندما لا يخفي قلقه من أن يتكرر سيناريو بجنوب السودان، فالجديد هذه المرة لم يكن فقط فهم المطالب التي استمرت في غالبيتها داخل الطرح الاقتصادي، وإنما في التحول المزدوج لهذه الحركات الاحتجاجية حيث انتقلت من (مكان العمل) إلى احتلال الشارع، والتحول الثاني في شكلها العنيف حيث انتقل من الطابع السلمي إلى الطابع ألصدامي.

ثالثا:الحركات الاجتماعية والثورة الرقمية:

تاريخيا الحركات الاجتماعية من نشأتها في القرن 18 فصاعدا لم تكن كتحركات فردية، بل كحملات تفاعلية[6]. فالتحول والتوسع الذي أحدثته الثورة الرقمية فيما يتعلق بوسائل الاتصال قدم فرصا وانفتاحا على الحركات الاجتماعية غير مسبوق،فهده الوسائط زادت من الجمهور المستهدف[7] واصبحت لشبكات التواصل الاجتماعي الجاذبية الأكبر على المستوى الشعبي،"فالحشود الذكية المتصلة بين بعضها البعض بالتراسل عبر الكلمات هم بالفعل من يتسلمون الراية من الحركات الاجتماعية التقليدية للقرن20.

ومما لاشك فيه ان الحركات الاجتماعية في بداية هدا القرن،قد انتجت تقنيات جديدة في تنظيمها و بالقدر نفسه انتجت ادوات اخرى للتعبير عن مطالبها،وبالتالي تبقى هناك اسئلة مهمة:هل غيرت هده التقنيات الجديدة من الاليات التعبيرية للحركات الاحتجاجية بالجزائر

إن العنف أصبح لغة التعامل وآلية للضغط، ولا يمكن تجاهل تأثير الوسائط الإعلامية في تطور هذه الأشكال الاحتجاجية بالجزائر في هذا السياق يشير Erick Neuve إلى دور الإعلام في ظهور والتفاعل بإبراز تأثيرها وحقيقة أوضاعها كما يتجلى في ظهور وسائل إعلام جديدة تسعى إلى تجاوز وضعية الإعلام[8]، وهذا ما تقوم به لوحدها بعض الوسائل والقنوات الإعلامية في الجزائر .كما لابد من التوقف عند متغير مركزي و هو الاحتجاج الافتراضي الذي يبدا عبر الوسسائط الاتصالية ليتحول في المرحلة التالية الى هدا الشكل العنيف.

سوسيولوجيا الاحتجاجات عن طريق العنف تشكل قطيعة في غياب نخبة سياسية وفكرية قادرة على الاستثمار في مثل هذه الوضعيات، هذا لا يعني عدم تأثيرها كعمل جماعي يسعى إلى فرض نفسه بشكل عنيف ما دامت الأفاق وقنوات التعبير مغلقة ولا تسمع إلا بهذا الشكل .

إن راديكالية الحركة الاحتجاجية بالجزائر وانتقالها من التظاهرة السلمية إلى احتلال الفضاء العمومي يعود في نظرنا إلى ثلاث متغيرات:

✓الأول: تحول الاحتجاج من الطبقة العمالية التي طبعت مسار التطوري لسلك الاحتجاجات الى طبقة جديدة تعرف حضورا متزايدا للفئة الشبابية من الجنسين كمؤشرات ديموغرافية على طابعها العنيف . وما يؤكد هدا الطرح ان الشباب من ليس لهم وظيفة قارة سيلعبون دور المحرك لحالة الرفض لانهم يعتقدون بعدم استفادتهم من الريع بالشكل الذي يريدونه والحالة النفسية لهؤلاء الشباب استثنائية،تتأسس على الخوف من المستقبل واليأس.[9] وعليه نشهد حاليا فاعلين جدد،فالفاعل النقابي لم يعد هو الوحيد المهيمن على هده الاحتجاجات.

✓ الثاني: هو أزمة النخب السياسية والنقابية وانسلاخها المتزايد عن المجتمع والذي أقصاها عمدا من وظيفة التبعية وقيادة مطالبه، ولعل ضعف مشروعيتها تغير إلى حد بعد ارتمائها في أحضان الدولة كرهان لإعادة إنتاجها، كما هو الحال المركزية النقابية U.G.T.A

فالاحتجاجات الحالية تؤشر الى تزايد الاقتناع لدى الشباب بان العنف والفعل المباشر قد يكونان أكثر جدوى ونفعا من الاعتماد على السياسين،فالعمل خارج الاطر والمؤسسات القائمة هو الضامن الوحيد لتحقيق المصلحة والوصول الى الهدف المنشود.

✓ الثالث: عدم وجود أطر وقنوات الاتصال بين الدولة والمجتمع، وحتى وإن وجدت فإنها تخطئ الاتجاه و العنوان، فالاحتجاج بالطبع يقوم به فئات شبابية في مقتبل العمر والدولة تحاور أعيان المنطقة وشيوخها.

وفى الاخير لابد من الاعتراف بان ملامح ومعالم الحركات الاحتجاجية تنتج عن التغيرات في سياقاتها الاجتماعية والسياسية أكثر من كونها تنتج من ابتكارات الثورة التكنولوجية.

الهوامش:

1. تشارلز تلي،ترجمة ربيع وهبة، الحركات الاجتماعية،المجلس الاعلى للثقافة.ص176
- الإحصائيات الحالية تشير الى تسجيل 11 الف احتجاج وأعمال عنف بالجزائر خلال السنة المنصرمة، استدعت تدخل لقوات حفظ الأمن، وان كانت هده الظواهر محددة جغرافيا، فان إمكانية اتساعها وتجدرها قائمة، و كلما قامت السلطة بتقديم الامتيازات والتنازلات، تزداد المطالب والاحتجاجات،يكون الشباب الذي لا يس تفيد من التوزيع الريعي محركها. دلك ان قاعدة الولاء المبني على المقايضة من خلال شراء السلم الاجتماعي مرتبطة بعوامل سياسية وليست خيارات تقنية.
2. يمكن العودة إلى: معن خليل العمر:الحركات الاجتماعية،دار الشروق للنشر والتوزيع،
3. يمكن العودة الى عبد الناصر جابي " الجزائر تتحرك دراسة سوسيوساسية للاضرابات العمالية، دار الحكمة الجزائر1994
4. يرجع ناصر جابي هدا الانتقال العنيف الى دلك اللقاء التاريخي بين هده الحركات الاحتجاجية الشعبية و التيار الديني الذي استطاع احتواء مطالبها،عكس التيارات السياسية الاخرى التي فشلت في دلك.
- معنى الظلم و التعسف و مفهوم شعبي يعني الكثير من الدلالات رفعته معظم الحركات الاحتجاجية بالجزائر.
5. عبد الناصر جابي:مساهمة في سوسيولوجية النخبة النقابية الجزائرية، مجلة نقد، العدد6،مارس1994.
6. E ric neveu, sociologie des mouvements sociaux, éd la découverte paris 2002 P 51.
7. .Mostefa boutefnouchet,la société algérienne en mutation,opu, p59.
8. فريد زهوان الحركات الاجتماعية الجديدة،مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان،ص 23
9. محمود ممداني،وامبا ديا وامبا:الحركات الاجتماعية و الديموقراطية في افريقيا و العالم العربي،الجزء الاول،المركز القومي للترجمة، ص 52